

حِينَ يَسْتَعِيدُ الْوَجُودَ مَعْنَاهُ

رِحْلَةٌ فِي الطَّمَانِينَةِ الْقُرْآنِيَّةِ
وَسَطَ عَالَمِ قَلْقٍ

رَدَّادُ السَّلَامِي

بسم الله الرحمن الرحيم

(أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون)

حين يستعيد الوجود معناه

رحلة في الطمأنينة القرآنية وسط عالم قلق

رداد السلامي

المقدمة

لم أكتب هذا الكتاب لأضيف عنوانًا جديدًا إلى رفوف الفكر الديني، ولا لأكرّر ما قيل بصيغٍ أخرى، ولا لأدخل سجلاً عابرًا مع أسئلة العصر... بل كتبتّه لأن الإنسان — في عمق هذا الزمن المضطرب — يقف أمام أسئلة أثقل من أن تُوجَل:

لماذا نحن هنا؟

هل للحياة مقصد أم أنها مصادفة طويلة؟

هل للموت معنى أم أنه انطفاء بلا رجعة؟

هل للعدل موعد أم أن التاريخ يطوي الضحايا كما يطوي الغبار؟

هذه ليست أسئلة نخبويّة معزولة في دوائر الفلاسفة، بل هي الأسئلة التي تسكن الوعي الإنساني حين يهدأ الضجيج، وتنطفئ الشاشات، ويبقى الإنسان وحده مع هشاشته، وعمره المحدود، وخوفه القديم من الفراغ.

هذا الكتاب محاولة للوقوف عند تلك اللحظة الصامتة... حين يواجه الإنسان نفسه بلا زخرفة.

اخترت أن أنطلق من القرآن، لا بوصفه نصًّا تعبدِيًّا فحسب، بل بوصفه مشروعًا شاملاً لتفسير الوجود: يقدّم تعريفًا للكون، وللزمن، وللإنسان، وللموت، وللتاريخ، وللمصير.

ولم أسع فيه إلى خطاب الوعظ المباشر، ولا إلى لغة الاستثارة العابرة، بل إلى قراءة تأملية عالية، تُخاطب العقل كما تُخاطب القلب، وتقيم البرهان كما تزرع السكينة وتبني المعنى لا عبر الشعارات... بل عبر الرؤية الكلية.

ستجد في الصفحات الآتية أن الإيمان — في منطق القرآن — ليس هروبًا من العالم، ولا انسحابًا من أسئلته، ولا قفزة في الظلام، بل استقرارًا داخل تفسيرٍ متماسك للوجود: تفسير يمنح للألم سياقًا، وللزمن وظيفة، وللأخلاق جذورًا، وللموت أفقًا، وللحياة وزنًا لا يتبخّر.

وسيجد القارئ أن القضية ليست في إثبات وجود معنى مجرد، بل في اختيار القصة التي يعيش داخلها: هل يرى نفسه كائنًا طارئًا في كونٍ بلا مركز؟

أم مخلوقًا داخل هندسة مقصودة، يمضي تحت عين العدل،

ويتجه إلى لقاء؟

إن هذا الكتاب لا يعد بإزالة كل الغموض؛ فالأسئلة الكبرى لا تُلغى... لكنه يسعى إلى إعادة ترتيبها، ووضعها في موضعها الصحيح، كي لا تتحوّل إلى قلقٍ مدمر، بل إلى طريق بحث يقود إلى الطمأنينة.

كتبت هذه الصفحات وأنا على يقين أن الأفكار لا تُقاس بضجيجها
اللحظي، بل بعمرها الطويل.

وأن الكتب التي تستحق البقاء، هي تلك التي لا تُقرأ مرة واحدة...

بل تُعاد قراءتها حين تتغير حياة قارئها.

فإن وجدت هنا ما يعيد تثبيت قدميك في أرض المعنى، وما يذكرك بأنك
لست متروكاً في كونٍ صامت، ولا مسافراً بلا نهاية، ولا رقماً في سجلّ
الطبيعة...

فذلك هو المقصود.

أما ما سوى ذلك، فليس إلا محاولة بشرية متواضعة للاقترب من سؤالٍ
أعظم: كيف يعيش الإنسان حين يوقن أن الله هو الحق...

وأن ما عداه زائل؟

رَدَّادُ السَّلَامِي 

الفصل الأول

الحق بوصفه أصل الوجود ومرسى الطمأنينة

(١) حين يُسمَّى الوحي مصدر الوجود

يفتح القرآن هذا الباب العظيم بقوله: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَطْلُ﴾

هذه الجملة القصيرة ليست خبرًا لاهوتيًّا فحسب، بل تعريف شامل للواقع.

فالآية لا تقول: إن الله صادق — بل تقول: هو الحق؛ أي إن الحقيقة ليست وصفًا لاحقًا لذاته، بل هي متجذّرة في كيانه سبحانه، ومنها يستمدّ كل ما عداه نصيبه من الوجود والثبات.

حين يُعرّف الله بالحق، فإن:

- الوجود لا يكون طارئًا بلا سبب.
- والنظام لا يكون وليد مصادفة عمياء.
- والتاريخ لا يتحرّك بلا غاية.

إنها نقلة ذهنيّة كبرى: من عالمٍ محتملٍ بلا معنى... إلى كونٍ مؤسّس على يقين.

ثم تأتي الجملة الثانية كحدّ فاصل: ﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ﴾

الباطل هنا ليس مجرد خطأ معرفي؛ بل وجود ناقص، هشّ في جوهره، مهما بدا متماسكاً على السطح.

هو مشروع حياة بلا أصل، وسردية كونية بلا مركز، ومعنى لا يستطيع أن يصمد أمام سؤال النهاية.

بهذا التوازي الدقيق بين الحق والباطل، يُعاد ترتيب الخارطة الوجودية في قلب الإنسان: هناك محور ثابت، وما عداه إمّا تابع له... أو زائل بدونه.

٢) نفي العبث: حين يردّ القرآن على قلق الإنسان

يتقدّم الوحي خطوةً أخرى، فيخاطب السؤال الوجودي القديم:

هل نحن هنا بلا غاية؟

﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾

الاستفهام هنا تقييدي لا استعلامي؛ كأن النصّ يقول: مجرد تصوّر العبث إساءة لفهم حقيقة الوجود.

فلو كان الخلق عبثًا، لانقطعت الصلة بين الفعل والجزاء، ولصار الألم لغزًا بلا حكمة، والخير مخاطرةً غير مضمونة العاقبة.

لكن الآلة تربط الخلق بالرجوع: البدء ليس منفصلاً عن المنتهى، والحياة ليست قوسًا مقطوع الطرفين، بل مسارٌ له نقطة صدور... ونقطة حساب.

وهنا تتسلل الطمأنينة من حيث لا يشعر الإنسان: ما دام الرجوع قائمًا، فليس في الوجود حركة ضائعة.

٣) الوزن الأخلاقي للأفعال

ويُشدّد القرآن هذا المعنى حين يقول: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ (١) و﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ (٢)

هنا يبلغ النظام الأخلاقي كماله: لا حركة بلا تسجيل، ولا أثر بلا ظهور، ولا صغيرة تُمحي لأنها صغيرة.

إنها صياغة قرآنية لفكرة عميقة: الكون ليس صامتًا أخلاقيًا.

الوجود يسمع أفعال الإنسان، ويحتفظ بها، وينتظر لحظة كشفها الكامل.

في عالمٍ ماديٍّ صرف، قد يُفسّر السلوك بوصفه تفاعلات كيميائية؛

أما هنا، فالفعل خطاب موجّه إلى المستقبل، وسطرٌ في كتاب المصير.

٤) الموت: نهاية أم عبور؟

ثم تأتي اللحظة التي ترتجف لها الفلسفات: لحظة الموت.

فيعالجها القرآن لا بوصفها سقوطاً في العدم، بل انتقالاً داخل نظام الحق:

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾

تأمل ترتيب الكلمات: الذوق... ثم الرجوع.

الموت مرحلة في الطريق، لا محطته الأخيرة.

العدم لا يُذكر هنا أصلاً؛ الذكر كله موجّه إلى جهة أخرى: إلينا.

بهذا التحويل الدقيق في زاوية النظر، ينكسر الرعب الوجودي في جوهرة:

ما دام وراء الموت رجوع، فليس الموت قطيعةً مع المعنى، بل كشفًا أوسع له.

٥) خلاصة الفصل: الإنسان داخل قصة كبرى

من اجتماع هذه الآيات تتشكّل صورة واحدة متماسكة:

- الله هو الحق → إذن للوجود أساس.
- الخلق ليس عبثاً → إذن للحياة جهة.
- كل فعل موزون → إذن للأخلاق جذور كونية.

• الرجوع بعد الموت → إذن للمسار خاتمة عادلة.

الإنسان في القرآن ليس كائنًا تُلقى به الصدفة في كونٍ بارد، ولا رقمًا في معادلة بيولوجية، بل فاعلاً داخل سرديّة كبرى، تبدأ بالحق، وتجري في ظلّ الحق، وتنتهي إلى الحق.

الفصل الثاني

لماذا لا يمنح الباطل طمأنينة دائمة؟

١) الطمأنينة: أثر الحقيقة لا الوهم

الطمأنينة ليست شعورًا نفسيًا عابرًا؛ إنها ثمرة رؤية كونية متماسكة.

ولهذا يربط القرآن السكينة بالذكر، لا بالظروف: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾

لاحظ صيغة الحصر: ألا... كأن النصّ يصدّ كل المنافذ الأخرى: ليس المال ولا السيطرة، ولا المتعة، ولا تراكم المعرفة المجردة... بل ذكر الله؛ أي حضور الحقيقة العليا في وعي الإنسان.

فالطمأنينة ليست ناتجة عن استقرارٍ خارجي، بل عن اتّساقٍ داخلي بين الإنسان والكون.

حين يعرف المرء أين يقف في الخريطة الكبرى للوجود، يسكن.

(٢) الباطل: سرديّة بلا نهاية

يعرض القرآن صورة الباطل لا بوصفه رأيًا آخر فحسب، بل بنية قاصرة:

﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ﴾

الباطل هنا ليس خطأ جزئيًا... إنه مشروع تفسير كامل للوجود من دون مرجع أعلى.

وكل سرديّة تُقصي المطلق، تجد نفسها أمام أسئلة لا جواب نهائي لها:

- لماذا يوجد شيء بدلًا من لا شيء؟
- لماذا للعدل معنى؟
- لماذا يؤلم الظلم؟
- لماذا نخاف الموت إن كان عدمًا محضًا؟

الباطل قد يمنح تسكينًا مؤقتًا، لكنّه يعجز عن توفير معنى طويل النفس.

هو يصلح للحظة... لا لرحلة العمر.

(٣) هشاشة البنيان حين يغيب الأساس

يضرب القرآن مثالًا بالغ الدقة: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانَّهَارٍ بِهِ فِي نَارٍ جَهَنَّمَ﴾

الصورة هندسيّة في ظاهرها... وجوديّة في عمقها.

بناءً بلا أساس صخريّ، يقف ما دام الطقس معتدلاً، لكنّه ينهار عند أول فيضان.

هكذا التصرّوات التي تُقصي الله: تبدو متماسكة في زمن الرخاء، لكنها تتصدّع أمام الفقد، والمرض، والموت، والسؤال الأخلاقي الأخير.

٤) حين يحاول الإنسان أن يكون مرجعيته العليا

ومن أخطر صور الباطل أن يتخذ الإنسان نفسه مركزاً مطلقاً: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾

ليست القضية شهوةً عابرة... بل مرجعيّة.

حين يصبح الهوى معيار الحق، يتحوّل العالم إلى مرآة رغبات، ويُختزل العدل في ما يخدم الذات، وتُعاد صياغة القيم بحسب المزاج.

وهنا تنهار الطمأنينة من الداخل: لأن الإنسان — مهما تعاظم — كائن قلق بطبيعته، متقلّب المزاج، محدود العمر، ضعيف أمام المصائب.

كيف يصلح أن يكون إلهاً لنفسه؟

٥) الوعد الكاذب بالاكتفاء الدنيوي

ويبلغ القرآن ذروة الكشف حين يقول: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ ليس ذمًّا للعلم... بل تحذيرًا من الاكتفاء بالسطح.

معرفة بلا أفق أخروي، تشبه خريطة دقيقة لمدينة... بلا اتجاه خروج. يمكن للإنسان أن يبرع في تفسير الآليات، لكنه يظل عاجزًا عن تفسير الغاية.

٦) خلاصة الفصل: لماذا يفشل الباطل في إسكات القلق؟

لأن:

- لا أصلًا نهائيًا يثبت الوجود.
- ولا عدلًا كونيًا يضمن إنصاف المظلوم.
- ولا معنى للموت سوى الانطفاء.
- ولا وزن أبدئيًا للأفعال.

وحين تُسحب هذه الأعمدة الأربعة، يبقى الإنسان معلقًا في كونٍ بلا سقف.

أما الحق... فيعيد إليه الأرض تحت قدميه، والسماء فوق رأسه،

والطريق أمامه.

الفصل الثالث

الإنسان بين المصادفة والاختيار المقصود

(١) هل الإنسان حادثة عمياء... أم مقصد إلهي؟

تتصارع في الفكر الإنساني رؤيتان: إحداهما ترى الإنسان نتاج تفاعلاتٍ صمّاء، والأخرى — القرآنية — ترفعه إلى منزلة القصد والاختيار.

يقول الوحي: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لْعِبِينَ﴾

اللاعب يُصنع بلا غاية، والعبثي يُنتج بلا مسؤولية.

ونفيُّ اللعب هنا ليس عن الكون فحسب، بل عن الإنسان داخله.

فإذا كان المسرح الكونيّ غير عبثي، فكيف يكون الممثل المركزيّ فيه — الإنسان — عبثاً؟

ثم يرسّخ المعنى بآية أخرى: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى﴾

كلمة سُدًى تضرب في عمق القلق البشريّ: أن تُترك بلا توجيه، بلا حساب، بلا غاية نهائيّة.

الآية لا تناقش الاحتمال... بل تنقضه من أساسه.

فالإنسان في المنظور القرآني ليس فائضًا كونيًا، ولا رقمًا ضائعًا في دفتر الطبيعة، بل مشروعًا أخلاقيًا تحت النظر الإلهي.

٢) الاصطفاء بالمعرفة: حين يُمنح الإنسان معنى التفوق

ويمضي القرآن إلى ما هو أعمق: ليس الإنسان مقصودًا فحسب، بل مُهيأً للقيام بوظيفة كبرى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾^١ الخلافة هنا ليست سلطةً سياسية، بل تكليفٌ حضاريٌّ وأخلاقيٌّ: إعمارٌ، وعدلٌ، وتحملٌ أمانة الاختيار.

ثم تُربط هذه المنزلة بالعلم: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾^٢

المعرفة ليست ترفًا في القرآن؛ إنها أداة أداء الرسالة الوجودية.

الإنسان يُعطى عقلًا لأن عليه أن يُحاسب،

ويُدرَّب على الفهم لأنه مُطالب بالاستقامة.

٣) الأمانة: الحرية التي تصنع الكرامة والخطر معًا

ثم يضع الوحي الإنسان أمام لحظةٍ مفصلية: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ﴾^٣

الأمانة هي قابلية الاختيار تحت التكليف.

حريةً يمكن أن تصنع قديسًا... أو طاغية.

هنا يبلغ الإنسان ذروة الخطر والعظمة معًا: ليس مجبورًا على الخير كالمَلَك، ولا منساقًا بالغريزة كالحيوان، بل كائنٌ يقف في منتصف الطريق... تُخاطب إرادته، ويُنتظر جوابه.

٤) المسؤولية الفردية: لا ذوبان في الجماعة

وَيُحْسَمُ الْأَمْرُ أَخْلَاقِيًّا: ﴿وَكُلُّ إِنْسَانٍ لَّزَمَنَّهُ طَئِرُهُ فِي عُنُقِهِ﴾

الصورة شديدة البلاغة: العمل مُعلّق بك... لا ينفصل عنك، ولا يُرمى على غيرك.

ويُستكمل المعنى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾

في عالم المصادفة لا وزن للفعل، وفي عالم الحق... كل شيء محسوب.

وهنا تتشكّل الطمأنينة الكبرى: أنك لا تضيع أخلاقيًا، ولا تُظلم حسابيًا، ولا يُهمل صدقك في زوايا التاريخ.

٥) النهاية التي تكشف المعنى

ثم يأتي الخطاب الحاسم: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾

الرجوع هو الكلمة المفصلية.

لولاها لتحوّل المسار إلى قوسٍ بلا خاتمة.

أما بها... فكل خطوة تستعيد وزنها، وكل ألم يُعاد تفسيره،

وكل اختيار يطالب بتبريره النهائي.

ليس الإنسان مسافرًا في طريقٍ دائريٍّ، بل سائرًا نحو لقاء.

٦) خلاصة الفصل: الإنسان مشروعٌ لا حادثة

من مجموع هذه الآيات يتشكّل الإنسان القرآني:

- مخلوق بقصد.
- مكلف بخلافة.
- مُمتحن بحرية.
- محمول بأمانة.
- مسؤول عن أثره.
- سائر إلى حساب.

ليس شرارةً في عتمة الطبيعة، بل فقرةً أساسيّة في ملحمة الوجود الكبرى.

الفصل الرابع

الزمن... من التدفق الأعمى إلى الامتحان المقصود

(١) حين يُقسم الوحي بالوقت

يفتح القرآن هذا الباب بقَسَمٍ مهيب: ﴿وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾.

ليس القسم بالزمن عارضاً؛ فالقرآن لا يُقسم إلا بعظيم.

العصر هنا ليس ساعةً في اليوم، بل رمز الامتداد الزمني كله: العمر المتحرك، التاريخ المتراكم، والفرص التي تمضي ولا تعود.

ثم تأتي الصدمة الوجودية: الإنسان في خُسْر... أي في نزفٍ مستمر، ما لم يمسك بمعنى يوقف هذا الانحدار.

فالخسارة ليست فجأة؛ إنها ما يحدث حين يمضي الوقت... ولا يُستثمر.

(٢) الوقت رأس مال لا يعود

ويُصرّح القرآن بهذا المنطق حين يقول: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَن أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾

تأمل كلمة خِلفة: تعاقبٌ منظم، فرصٌ تتبدّل، صفحاتٌ تُطوى وتُفتح.
الليل والنهار ليسا ديكورًا كونيًّا؛ إنهما نظام تدريب أخلاقي: تذكّر... وشكر...
 وإعادة توجيه.

فالزمن في القرآن ليس حياديًّا؛ إنه يحمل وظيفة تربويّة.

٣) قِصر العمر... بوابة التركيز

ويوقظ القرآن وعي الإنسان بفناء المدة: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿١﴾ وَيَبْقَى
وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢﴾﴾

الفناء هنا ليس تشاؤمًا... بل إعادة ترتيب للأولويّات.

حين يُدرك الإنسان أن الزمن محدود، يتوقّف عن بعثرة المعنى، ويتعلم
الاقتصاد في التفاهة، والاستثمار في الباقي.

الفاني لا يُؤسّس عليه، والباقي وحده يصلح أن يكون مرجعًا نهائيًّا.

٤) التاريخ ليس فوضى

ثم يوسّع القرآن العدسة: من عمر الفرد... إلى مسار الأمم: ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ
نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ ﴿١﴾ الدَّوْلَةُ تَصْعَدُ، وَالْحَضَارَةُ تَتَرَاوَعُ، والقوة تنتقل... لكن
التداول ليس عبثًا؛ بل سنّة اختبار.

فالزمن التاريخي في الرؤية القرآنية مختبر أخلاقي كبير، يُكافئ الصلاح الحضاري، ويفضح الاستكبار، ويمنح الفرص... ثم يغلقها.

٥) التأجيل: أخطر وهم زمني

ومن أخطر ما يكشفه القرآن: خداع التسويف: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ﴾ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ﴿

التأمل هنا موجه: الإنسان يعرف ماذا كان ينبغي أن يفعل... لكنه أدركه متأخرًا.

التسويف يقوم على افتراض خفي: أن الوقت مضمون.

والقرآن ينسف هذا الافتراض من جذوره.

٦) اللحظة بوصفها موضع النجاة

ويضع القرآن مفتاح النجاة داخل الزمن نفسه: ﴿سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾

﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾

الخطاب ليس للانتظار... بل للحركة.

اللحظة الحاضرة في القرآن ليست حيًّا فارغًا، بل بوابة القرار.

كل تأخير في الخير خسارة زمنية، وكل مبادرة ربح وجودي.

٧) خلاصة الفصل: الوقت حقل امتحان

يتشكّل الزمن القرآني في صورة واحدة:

- ليس تدفّقاً أعمى.
- ولا سيلاً بلا معنى.
- ولا مادةً محايدة.
- بل:

- فرصة مُقاسة.
- وأمانة متحركة.
- ومزرعة للآخرة.
- وسجّل للقرار.

العمر ليس ما يمرّ بنا... بل ما نصنعه فيما يمرّ بنا.

الفصل الخامس

الموت والبعث... من رعب الفناء إلى عدالة اللقاء

١) لماذا يخاف الإنسان الموت؟

الخوف من الموت ليس خوفًا من الألم فقط؛ إنه — في عمقه — خوف من الانقطاع: أن تنطفئ القصة بلا خاتمة، وأن يُطوى الوجود بلا جواب، وأن يُمحى العدل قبل أن يكتمل.

والقرآن لا يعالج هذا القلق بالإنكار أو التهوين،

بل بإعادة تعريف الموت من أساسه: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾

الترتيب حاسم: ذوق... ثم رجوع.

الموت مرحلة في الطريق، لا نهاية المسار.

كأن النصّ يسحب كلمة العدم من المعجم الوجودي، ويضع بدلها: العودة.

٢) البعث: ضرورة عقلية قبل أن يكون خبرًا غيبياً

لا يقدّم القرآن البعث بوصفه مفاجأة اعتباطية، بل نتيجة منطقية لعالم قام على الحق: ﴿وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾

إنكار البعث ليس إنكاراً لحدثٍ مستقبليٍّ فحسب، بل تشكيك في عدالة الوجود ذاتها.

لو انتهى كل شيء بالموت، لبقى الظالم في مأمن، وضاع المظلوم بلا جبر، وصارت الفضيلة مخاطرة غير مضمونة.

لكن البعث هو الحلقة التي تغلق الدائرة الأخلاقية للكون.

٣) إعادة الخلق... ليست أصعب من البدء

ويخاطب القرآن اعتراض العقل المتردد: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ ليس في الآية تشبيهه بقدرة بشرية؛ بل تقريب للمعنى إلى الفهم الإنساني: من قدر على الإنشاء من العدم النسبي، فالإعادة في ميزان الإدراك البشري أيسر.

إنكار البعث هنا يبدو خللاً في القياس العقلي قبل أن يكون تمرّداً عقدياً.

٤) مشهد الوقوف: حين يُكشف المستور

ثم ينتقل القرآن من البرهان... إلى المشهد: ﴿وَعَرِّضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا﴾
﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ﴾

اللغة هنا مسرحية في دقتها: صفوف... كتب... أعمال مكتوبة... دهشة أمام
تفاصيل لم تُنس.

ليس في المشهد صراخٌ بلا معنى؛ بل انكشاف كامل.

الإنسان يواجه ذاته كما هي، لا كما كان يبررها.

٥) العدل المطلق: لا ظلم في الخاتمة

ويبلغ الخطاب قمته حين يقطع كل توهم: ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا
يُظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾

هذا هو قلب الطمأنينة الأخروية: أن الحساب دقيق، وأن الرحمة لا تلغي
العدل، وأن العدل لا يخلو من رحمة.

لا تُضاعف السيئات ظلماً، ولا يُنقص الإحسان بخساً، ولا يضيع وجعُ
صامت عاشه صاحبه في زوايا التاريخ.

٦) الموت في ضوء الحق: تحوّل المعنى

حين يوضع الموت داخل هذا الأفق، يتحوّل من فاجعة وجوديّة إلى عبورٍ مُهيّب.

لا يعود سؤال الإنسان: ماذا لو انتهيت؟

بل: كيف ألقى؟

وهنا ينتقل مركز القلق من الخوف من الانطفاء... إلى الاستعداد للوقوف.

٧) خلاصة الفصل: النهاية التي تعطي البداية معناها

من مجموع هذه الآيات تتكوّن صورة واحدة:

- الموت ليس إلغاءً.
- والبعث ليس خيالاً.
- والحساب ليس رمزاً.
- والعدل ليس احتمالاً.

بل هي بنية كاملة لمعنى الحياة.

إنها الخاتمة التي تجعل كل ما قبلها مفهوماً، وكل ألمٍ قابلاً للتفسير،

وكل اختيارٍ جديرًا بالمسؤولية.

الفصل السادس

الطمأنينة الكبرى... كيف يصنع الإيمان إنسانًا مستقرًا في كونٍ مضطرب؟

(١) الطمأنينة ليست هروبًا من الواقع

الطمأنينة في التصوّر القرآني ليست إنكارًا للألم، ولا تخديرًا روحيًا أمام القسوة، ولا انسحابًا من التاريخ.

إنها ثبات المعنى وسط العاصفة.

ولهذا يقول الوحي: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾

صيغة الحصر هنا قاطعة: السكينة ليست نتاج ترتيب الظروف،

بل ثمرة استقرار المرجع الأعلى في الداخل.

حين يعرف القلب من بيده المصير، تسقط رهبة المصادفة، وينطفئ قلق الفوضى.

(٢) من الخوف إلى الثقة: إعادة ضبط الداخل

الخوف الدائم وليد عالم بلا ضمانات أخروية.

أما في الرؤية القرآنية فالمشهد مختلف: ﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا﴾

ليست الآية دعوة للكسل أو الاستسلام، بل إعلاناً لتحرير الإنسان من وهم السيطرة المطلقة.

أن تعمل... نعم.

أن تخطّط... نعم.

لكن دون أن تُعلّق وجودك الهشّ على نتائج لا تملكها.

الطمأنينة هنا ناتجة عن معرفة حدودك...

ومعرفة من يتجاوزها.

٣) البلاء: حين يتحوّل الألم إلى امتحان معنى

ويضع القرآن الألم داخل هندسة تربويّة دقيقة: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾

البلاء هنا ليس فوضى عمياء... بل جزء من المنهج.

ثم تأتي البشرى لا قبل الصبر... بل بعده.

كأن النص يقول: الألم حين يُقرأ قراءةً إيمانية يتحوّل من نقمةٍ غامضة... إلى رسالة تربية.

٤) القلب الموزون: بين الخشية والرجاء

ولا يصنع القرآن نفساً مطمئنة بالطمس العاطفي،

بل بالتوازن: ﴿نَبِّئْ عِبَادِيَ أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ
الْأَلِيمُ ﴿

الرجاء بلا مسؤولية يوّلّد التسيّب، والخوف بلا أفق يوّلّد القنوط.

أما الجمع بينهما فيخلق إنساناً يقظاً بلا فزع، مطمئناً بلا غرور.

٥) الاستقامة اليومية: الطمأنينة كعادة

ولا يُقدّم الاستقرار الروحي في القرآن كطفرة وجدانية نادرة، بل كثمرة لمسار مستمر: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا﴾

الترتيب بالغ الدقة: قول... ثم استقامة... ثم طمأنينة.

ليست السكينة هبةً منفصلة عن السلوك؛ إنها ثمرة طريق طويل من الاتساق الداخلي.

٦) تحرير الإنسان من عبودية القلق

ويبلغ الخطاب ذروة التحرير حين يقول: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾

حسبه: أي يكفيه في جوهر وجوده.

ليست صيغة حساب مادّي، بل اكتفاء وجودي.

حين يستقر هذا المعنى في القلب، تتراجع الهشاشة الداخلية، ويتحرّر الإنسان من الاستنزاف النفسي المستمر.

٧) خلاصة الفصل: الطمأنينة بوصفها موقفًا وجوديًا

تتكوّن النفس القرآنية المطمئنة من اجتماع عناصر:

- يقين بالمرجع الأعلى.
- ثقة بالقضاء مع عمل.
- قراءة للألم كاختبار.
- توازن بين الخوف والرجاء.
- استقامة طويلة النفس.
- توكل محرّر من القلق.

الطمأنينة ليست شعورًا...

بل رؤية للعالم.

وليس لحظة وجد... بل أسلوب حياة.

الفصل السابع

الحق في التاريخ... كيف يصنع الإيمان حضارة؟

(١) من الداخل إلى الخارج

لا يبدأ القرآن بإصلاح البنى السياسية أو الاقتصادية مباشرة،

بل بإعادة بناء الإنسان من الداخل: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا
بِأَنْفُسِهِمْ﴾

هذه الآية تضع قانون التاريخ الأكبر: التحوّل الخارجي مرهون بتحوّل
داخلي.

ليست الحضارات في الرؤية القرآنية آلاتٍ تتحرّك وحدها،

بل امتدادًا أخلاقيًا لما يسكن القلوب والعقول.

حين ينهض الإنسان على أساس الحق،

تتغيّر أنماط الإنتاج، ومفاهيم السلطة، وموازن النجاح.

٢) العدل: العمود الفقري للعمران

ولا يكتفي القرآن بدعوة روحية مجردة، بل يربط الإيمان بأثقل قيمة اجتماعية: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾

العدل هنا ليس خيارًا إداريًا... بل مقتضى التوحيد.

فحين يُوحّد المرجع الأعلى، تُسحب القداسة عن الظلم، وتسقط العصبية المصنوعة، ويُعاد الاعتبار للإنسان بوصفه إنسانًا.

أما الإحسان فيرتقي فوق العدل القانوني، ليجعل المجتمع حيًا لا مجرد منضبط.

٣) الشهادة على الناس: مسؤولية حضارية

ويمنح القرآن الجماعة المؤمنة وظيفة عالمية: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾

الوسطية هنا ليست تمييزًا، بل توازنًا قيميًا: بين الروح والمادة، بين الحرية والانضباط، بين القوة والرحمة.

أن تكون شاهدًا على الناس يعني أن تقدّم نموذجًا حيًا للمعنى، لا خطابًا معلقًا في الهواء.

٤) القوة... حين تُضبط بالقيم

ولا ينفي القرآن ضرورة القوة في التاريخ، لكنه يضعها داخل سياق أخلاقي:

﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾

القوة هنا ليست عبادةً جديدة، بل أداة لحماية الحق.

وحين تنفصل القوة عن القيمة تتحوّل الحضارة إلى آلة سحق، مهما بلغت من التقدّم التقني.

القرآن لا يصنع أمة ضعيفة... ولا يرضى بأمة متوحّشة.

بل جماعة تعرف متى تستخدم القوة، ولم تستخدمها، وأين تقف حدودها.

٥) التداول التاريخي: سنّة لا مجاملة فيها

ويذكر القرآن الأمم أن البقاء ليس مضموناً: ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾

التداول قانون أخلاقي قبل أن يكون سياسياً.

حين يفسد الميزان القيمي، تبدأ الحضارة في التفكك مهما علا بنيانها.

التاريخ في القرآن ليس سجلاً اعتباطياً، بل محكمة ممتدة عبر القرون.

٦) الإصلاح لا الهيمنة

ويضع القرآن تعريفاً دقيقاً لدور المؤمن في الأرض: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ﴾

الإصلاح هنا ليس شعاراً سلطوياً، بل جهداً أخلاقياً متواضعاً يعترف بالحدود، ويقاوم الفساد دون ادّعاء العصمة.

الحضارة القرآنية لا تقوم على تأليه الذات الجماعية، بل على مراقبتها الدائمة.

٧) خلاصة الفصل: حين يدخل الحق التاريخ

تشكّل الحضارة في الرؤية القرآنية من عناصر:

- إنسان متغيّر من الداخل.
- عدل مؤسسي.
- إحسان اجتماعي.
- وسطية شاهدة.
- قوة منضبطة بالقيم.
- وعي بتداول التاريخ.
- قصد إصلاحي لا استعلائي.

الحضارة ليست تراكم حجارة...

بل تراكم قيم في الزمن.

وليس غلبة لحظة...

بل أمانة ممتدة.

الفصل الثامن

اليقين والمعنى... كيف يواجه الإيمان أسئلة العبث الحديثة؟

(١) سؤال العصر: لماذا نعيش؟

السؤال المركزي في الفكر الحديث ليس: كيف نعيش؟

بل: لماذا نعيش أصلاً؟

وحين يُقصى الأفق الأخروي، وتُختزل الطبيعة في المادة، ويُختصر الإنسان في الكيمياء العصبية، يولد شعور خانق: أن الحياة حركة بلا غاية، وأن الأخلاق اتفاق مؤقت، وأن الألم فضيحة كونية بلا تفسير. القرآن لا يهرب من هذا السؤال... بل يقلبه رأساً على عقب.

(٢) نفي العبث مرة أخرى... ولكن بلغة المصير

يعود الوحي إلى الجذر: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾

هذه ليست فقط نقضاً فلسفياً للعبث؛ إنها إعادة توجيه للسؤال.

فالأية لا تناقش المعنى في الفراغ، بل تربطه بالرجوع.

إن لم يكن هناك مآل، صار كل تفسيرٍ للحياة مؤقتًا، وصارت كل قيمة قابلة للإلغاء.

أما حين يُثبت المصير، فالمعنى يستقر.

٣) الصدفة: حين تصبح تفسيرًا لكل شيء

من خصائص الذهنية العبثية الحديثة أن تجعل الصدفة أصلًا كونيًا.

فيأتي القرآن بهدوءٍ يقيني: ﴿مَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا﴾

النفي هنا وجودي لا جزئي: ليس الكون تجربة فاشلة، ولا مختبرًا بلا غاية.

حين تُنفى الباطلية عن الخلق، تُسحب الأرض من تحت كل فلسفة تفسّر الوجود بلا قصد.

٤) لماذا تؤلمنا المظالم إن كان العالم بلا عدالة؟

واحدة من أعمق المفارقات الحديثة: أن الإنسان يغضب للظلم...

وهو في الوقت ذاته يتبى تصورًا للكون لا يضمن عدلاً نهائيًا.

القرآن يلتقط هذا التناقض: ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ

كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ﴾

السؤال استنكاري قاطع: هل يستقيم في ميزان العقل أن يتساوى الصالح والمفسد؟

إن الشعور الفطري بأن هذا مستحيل هو بذرة الإيمان بالآخرة.

٥) القلق الوجودي: حين يغيب السقف الأعلى

حين لا يرى الإنسان فوقه إلا سماءً صامتة، يتحوّل القلق إلى حالة مزمنة.

لكن القرآن يقيم سقفاً ميتافيزيقياً مطمئناً: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾

ليست قهرية ظلم...

بل سيادة نظام.

معناها: أن العالم ليس سائباً، ولا الأحداث منفلة من مركز ضبط.

الطمأنينة هنا وليدة الاعتقاد بأن الفوضى ليست سيّدة المشهد الأخير.

٦) المعنى في العمل لا في الاستهلاك

ويعيد القرآن تعريف النجاح: ﴿وَالْبَقِيَّةُ الصَّالِحَةُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾

في عالم يقيس القيمة بما يُستهلك، يردّ القرآن القيمة إلى ما يُبقى أثراً.

المعنى ليس في التراكم، بل في ما يتجاوزك إلى المستقبل الأخروي.

٧) اليقين لا يُغلق العقل... بل يمنحه أرضًا يقف عليها

اليقين القرآني ليس تعطيلاً للتفكير، بل تثبيت لنقطة الانطلاق.

حين تعرف أن للكون أصلًا، وللحياة غاية، وللعدل موعدًا، يصير السؤال أعمق... لا أضعف.

الشك في هذا السياق ليس حالة دائمة، بل مرحلة عبور نحو رؤية أكثر تماسكًا.

٨) خلاصة الفصل: كيف يهزم الإيمان العبث؟

يهزمه لأنه:

- يمنح الكون أصلًا.
- ويعطي الزمن غاية.
- ويربط الأخلاق بمصير.
- ويحوّل الألم إلى امتحان.
- ويجعل الموت عبورًا لا انطفاء.
- ويمنح العقل سقفًا ميتافيزيقيًا لا يخنقه بل يحميه.

العبث يرى الإنسان نقطة عابرة في فراغ... أما القرآن فيضعه داخل قصةٍ كبرى عنوانها: الحق... والعودة إليه.

الفصل التاسع

الإنسان بين الحق والباطل... أي قصة سيختار أن يعيشها؟

(١) العالم ليس محايدًا

بعد هذا المسار الطويل، تتبدى الحقيقة الأولى: الكون في الرؤية القرآنية ليس أرضًا فارغة من القيم، ولا مسرحًا بلا اتجاه، ولا تجربة مفتوحة بلا خاتمة.

إنه فضاء أخلاقي مكتوب الهندسة: له أصل... وله مقصد... وله ميزان... وله حساب.

ولذلك يُختصر المشهد كله في جملة فاصلة: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾

ليس المقصود إلغاء التفكير، بل إنهاء وهم الحياد الوجودي.

إما رؤية تجعل للوجود مركزًا، وإما رؤية تتركه معلقًا بلا محور.

(٢) الحرية: أن تختار داخل معنى

القرآن لا يصوّر الإنسان مكرهًا على الإيمان، بل كائنًا يملك قرار السردية التي يعيش فيها: ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾

هذه ليست مساواةً بين العاقبتين، بل إعلاناً عن كرامة الاختيار.
أن تُمنَح حرية القرار يعني أنك أهلٌ للمساءلة، وأهلٌ لأن يُبنى مصيرك على
جوابك.

(٣) القصة التي تحياها... هي التي تصنعك

الإنسان لا يعيش فقط بما يفعل، بل بما يعتقد أنه يفعل من أجله.
من يرى نفسه حادثةً عمياء، سيتعامل مع الزمن بوصفه استهلاكاً.
ومن يرى نفسه مخلوقاً لغاية، سيتعامل مع العمر بوصفه رسالة.
ولذلك يقول القرآن: ﴿قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ
الْعَالَمِينَ﴾
هنا تبلغ القصة ذروتها: الحياة كلها — لا لحظاتها الدينية فقط — تُدمج
داخل أفق الحق.

(٤) الطريقان لا يلتقيان في النهاية

قد يتشابهان في البداية: عمل... نجاح... علم... علاقات... عمران...

لكن الفارق يظهر عند السؤال الأخير: إلى أين؟

ولهذا يضع القرآن خطّي النهاية بوضوح: ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي
السَّعِيرِ﴾

ليست هذه قسمةً اعتباطية، بل حصيلة مسارات طويلة.

الآخرة ليست مشهدًا مفاجئًا، بل كشفًا متأخرًا لما كان يُبنى بصمت في الدنيا.

٥) لماذا يخاطب القرآن العقل إلى النهاية؟

لأن الإيمان في منطقهِ ليس قفزةً في الظلام، بل استجابة لرؤية متماسكة للكون.

ولهذا تتكرر نداءات التفكير: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾

كأن الكتاب يقول: انظر... وازن... اسأل...

ثم اختر وأنت ترى الطريق كاملاً.

٦) الطمأنينة الأخيرة: أن تعرف أين تقف

بعد هذا كله، تعود الطمأنينة لا بوصفها حالة شعورية فقط، بل استقرارًا في موضعك من الخريطة الكبرى:

- تعرف من أين جئت.
- ولماذا وجدت.
- وإلى أين تمضي.
- وتحت أي ميزان ستوزن خطواتك.

وهنا يختم القرآن هذا النمط من الخطاب بنداؤٍ يفيض رقةً وجلالاً:

﴿يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴿١٠٦﴾ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾

الطمأنينة هنا ليست هروباً من العالم...

بل نتيجة عبوره على بصيرة.

الخاتمة الكبرى: قصة تُختار... لا تُفرض

هذا الكتاب — في جوهره — ليس جدلاً فلسفياً مجرداً، ولا دفاعاً خطابياً عابراً، بل محاولة لإعادة الإنسان إلى موقعه الصحيح في الوجود:

كائنٌ لم يُخلق سُدى،

ولم يُترك بلا حساب،

ولم يُلقَ في كونٍ صامت،

بل وُضع في قلب قصةٍ كبرى

عنوانها: الحق... والرجوع إليه.

والسؤال الذي يبقى بعد إغلاق الصفحة الأخيرة ليس: هل اقتنعت؟

بل: أيُّ قصةٍ ستختار أن تعيشها... قبل أن تُعرض كاملة؟

تم بحمد الله وتوفيقه